البحث عن غـــــد

— ٢ —

للأستاذ عباس محمود العقاد

أجملنا فى المقال السابق حديث مؤلف الكتاب مع الأستاذين الكبيرين شيخ الجامع الأزهر ومدير الجامعة المصرية

وقد تحدث المؤلف إلى فئة من المصريين النابهين غير الأستاذ المراغى والأستاذ أحمد لطفى السيد فقال عن الدكتور حافظ عفيفى باشا إنه أول سفير مصرى فى بلاط « سان جيمس » وإنه طبيب أطفال مشهور ، وكان وزيراً للخارجية فى سنة ١٩٢٨ وله مكانة عالية لبعده عن التحيز ووقوفه موقف الحيدة واطلاعه الواسع فى شؤون الثقافة المصرية

قال المؤلف : « ولما أخبرته بزيارتى للشيخ المراغى قال : إننى عظيم الإعجاب بالشيخ المراغى ، وهو عندى أصلح الرجال فى وقتنا هـذا لقيادة حركة الاصلاح فى التعليم الدينى . وقد ترك الطلبة هناك عادة الجلوس على الحصير وأصبحوا يجلسون على الكراسى ، وتعودوا أن يضعوا الكتب على المناضد بدلاً من وضعها على الركب ! وهـذا كل ما هنالك من الصبغة العصرية الحديثة . فهى لم تتجاوز ذلك إلى أساليبهم وأنظمتهم ولا إلى روح تعليمهم ودراستهم ، ولا يزال الأزهر حتى اليوم معنياً بالمراسم الدينية والآراء الجدلية . والشبان يضيعون هناك سنوات غالية من أعمارهم كانوا خلقاء أن يتعلموا فيها أموراً أنفع لهم ولبلادهم على التعميم . أما مدارسنا العصرية فهى على نقصها لا تنى تتقدم تقدماً مطرداً فى سبيل التفكير العلمى الملائم لزماننا ، وهذا فى حين أن الأزهر لا يزال على سنة القرون الوسطى علماً وعملا . ومن تقاليده أن يقع الاختيار على معميه من بين تلاميذه وطلابه المتخرجين فيه ، وسيظل متخلفاً ماداموا مصرين على هذه التقاليد . ولا رجاء لنا فى نهضة روحيـة صحيحة من جانب الدين ما دام المعلمون الدينيون بيننا ينشأون على غير النشأة المستنيرة التى ينشأ عليها الأساتذة الآخرون »

قال المؤلف : فسألته : ولماذا تحسب أن هذه النهضة الروحية ضرورية ؟

فقال : لأن الفلسفة المستقرة وراء الحياة المصرية لا بد لها من أساس روحية ، ولا تقوم هذه الأساس إلا على الإسلام ؛ وينبغى أن تقوم على إسلام صريح لا خرافة فيه . وإنما أعنى بما أقول أن تربيتنا الدينية يجب أن تكون على طبقة من الاستنارة تضارع تربيتنا فى الثقافة العامة . وقد جاءت قوة الإسـلام الدافعة فى عصره الذهبى من حقيقة واحدة : وهى أنه كان ديناً جد بسيط وجد واضح ، خلوا من التعقيد والإبهام ، فأخرج للدنيا ثقافة رفيعة ، وحول القبائل المتبدية فى فترة وجيزة إلى أمم متحضرة تعيش عيشة المدنية . ولابد للإسلام فى نهضته المقبلة من قيادة أتباعه مرة أخرى إلى الحضارة الصحيحة ؛ ولن يتسنى له ذلك إلا إذا اطرح الآراء الجامدة العتيقة والتجريدات المتخلفة من عقائد القرون الوسطى وليست هى من جوهر الدين فى شىء . عندئذ — وليس قبل هذا — يعود الإسلام وهو تلك القوة الروحية التى تفتقر إليها البلاد أشد افتقار »

فعاد المؤلف يسأل الباشا : وما هى إذن مسألة الغد فى مصر المقبلة ؟

فأجابه الباشا : مسألة الغد هى التعليم ثم التعليم كرة أخرى . وعلى أساتذتنا الدينيين والعصريين معاً ألا يقصروا تربيتهم على اقتباس العلم وحده ، بل يضيفوا إليه اقتباس الخلق والتهذيب . وعليهم أن يردوا الشعب إلى فضائل الشجاعة والصدق وحب الخير وحب الفن والمعرفة ، ونظافة العقل والبدن ، وهى الفضائل التى كانت مبعث القوة فى الإسلام . وعلى شبابنا المتعلمين وهم أشباه متعلمين أن يذكروا أبداً أن الأمة من الأمم لا يجوز لها أن تنعت نفسها بالتحضر والمدنية ما عاش أبناؤها على تلك الحالة المحزنة التى يعيش فيها الفلاحون ، ولا تغيير لها قبل انقضاء زمن مديد فى التثقيف والتهذيب »

وسأله المؤلف : أيوجد فى مصر أناس عندهم من البصيرة والشجاعة الأدبية ما يتطلبه التصدى لإصلاح البلاد والجهر بحاجاتها ؟

قال الباشا : نعم . هناك أناس من هؤلاء ، وأذكر لك على

سبيل المثال أسماء أصدقائى لطفى السيد وحسين هيكل ومصطفى وعلى عبد الرازق وطه حسين

* * *

وهنا انتقل المؤلف إلى رواية الحديث الذى جرى بينه وبين الدكتور طه حسين ، وقد بدأه الدكتور بكلام يدل على تغير الشبان من الوجهة الدينية

فسأله المؤلف : أترى أن الدين لا يدخل عندكم فى حياة الشباب ؟

قال الدكتور : على النقيض . إن له لدخلا فى حياتهم ، لأن للشباب تناقضاً معروفاً ، ومن تناقضه عندنا مسلكه فى أمر الدين ، فالشبان المصريون فى مقاومتهم للنفوذ الأجنبي ، وفى شعورهم الوطنى يصدرون عن عقائد آبائهم وتقاليد أسلافهم . ولم هذا ؟ لأن القرآن فى الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد الذي يقام عليه بناء أمة ؛ وقد أصبح شبابنا المصريون فى حياتهم الدارجة شعبة صغيرة منقطعة عن سائر الأمة . إلا أنهم يجدون أنفسهم فى القرآن على ملتقى واحد مع كل فلاح وكل بدوى فى الصحراء ؛ وهم — باعتمادهم على القرآن — يهيئون لسواد الجماهير أن يحالفوهم فى المعركة السياسية ، وإنما يأخذون من القرآن أسلحتهم السياسية ولا يستمدون منه عتاد الروح »

فقاطعه المؤلف سائلاً :

وما هو موقفهم إذن من الناحية الروحية ؟

فأجاب الدكتور : « أما من الناحية الروحية فهم واقفون فى العراء . لم يهضموا فلسفتهم العقلية الحديثة لأنهم تلقوها فى الغرب بعقولهم ولم يشركوا فيها قلوبهم وضمائرهم ، ولكنهم قد انحرفوا عن جادة آبائهم فهم يعزل عن كل معلم من المعالم الروحية ، وإن كان هذا لا يعنى أنهم يعزل عن الدين فى آمالهم ومخاوفهم »

فسأل مؤلف الكتاب : أتحسب إذن أنهم يثوبون إلى الدين فى أزماتهم الحاسمة ؟

قال : فضحك الدكتور طه حسين وقال : هذا ما أعنيه تماماً ، فقبل الدخول إلى مشرحة الجراح ، وقبل الدخول إلى حجرة الامتحان ، يثوب المتطرف منهم فى الإيمان بالعقل إلى الإيمان بقوة فوق متناول التفكير ، أو بقوة تعين الجراح وتلهم الأستاذ الممتحن وتوحى إلى المسئول كيف يجيب ، ويعود فجأة إلى اسم الله ... »

* * *

وبعد مناقشة فى رأى الشيخ المراغى وفيما يحسن بالرجل المصرى أن يتخذه من موقف فى أمور الدين ختم الدكتور حديثه قائلاً ما معناه : إن المصريين فريقان متفرقين ، ولكنهم فى المجتمع متساوون متساوون

* * *

وبين الكبراء الذين حادثهم « روم لاندو » على ماهر باشا وأحمد حسنين باشا قبل أن يندب الأول لرآسة الديوان الملكى

فكانت خلاصة الحديث الذى أفضى به على ماهر باشا أن الشعور الوطنى قد طغى بعد الحرب على كل شعور آخر ، وأن الجيل الحديث سيعود كرة أخرى أدراجه إلى حظيرة الدين ، وأن أناساً من أبنائه يتعطشون — حتى فى هذه الآونة — إلى مورد للدين يكشفونه بأنفسهم لأنفسهم وإن كانوا لا يزالون قلة بين المجموع

قال على باشا : « نحن عرضة لكثير من الأفكار ، وفى الحياة المصرية حركات كثيرة التقائض والأضداد ، والعلم بالنتائج مستحيل . إلا أننى أحسب أننا على حق حين نرى أن النزعة الدينية أقوى فى طائفة من الجيل الحديث مما كانت قبل بضع سنوات »

وسأل الأستاذ لاندو : « ماذا يصنع الآن لتحويل الوجهة التى كانت منصرفة كلها إلى الناحية السياسية ؟ »

فأشار على باشا إلى الخطة التى أعدها حين كان على رأس الحكومة لإنشاء معسكرات فى أرجاء البلاد يتعلم فيها الشباب الرياضة والأخلاق الرياضية ويأوون إليها فى كل شهر أربعة أيام ، ويتلقون فيها دروساً ومحاضرات عامة فى علم الاجتماع وشؤون الثقافة ومعارض التاريخ

ولما سأله المؤلف عن مصير هذا الاقتراح ، قال : إن الوفد أبطله حين تولى الحكومة . وعقب المؤلف قائلاً : « إن من تقاليد السياسة المصرية — أو السياسة فى معظم الأقطار الشرقية — أن الحكومة الجديدة تبطل ما استطاعت من أعمال الحكومة السابقة

ثم سأل : « ولكن الوفد له هو أيضاً مقترحاته للسمو بالجيل الحـديث وتحويل جهوده . أليس كذلك ؟ فقد سمعت بالعناية المبذولة فى الألعاب وضروب الرياضة ! »

قال الباشا : نعم . إلا أن النظام الحاضر يجعل باله قبل كل شىء إلى إنجاب « الأبطال » الذين يحرزون الجوائز فى المباريات الدولية ولا يعطى الجمهـور نصيبه من الرعاية ، ولا يلتفت إلى الأخلاق كما يلتفت إلى الأبدان . وما كان التعليم المتجه إلى إحياء الحاسة الدينية الاجتماعية يوماً من الأيام شاغلاً بنفع الأحزاب السياسية فى غايتها من الدعاية ، فلا سبيل إلى هذا التعليم إلا على أيدى حكومة غير حزبية أو حكومة قومية »

* * *

أما أحمد حسنين باشا فقد بدأ الكلام معه على تعليم صاحب الجلالة الملك فاروق . ثم استطرد إلى السماحة الدينية ومذهب الباشا فيهـا ، وهو مذهب يشبه مذهب محيى الدين بن العربى . وقد كانت لرحلاته فى الصحراء يد قوية فى هدايتـه إلى تلك الطريق الروحية

سأله الأستاذ لاندو : لقد أُخبرت أن الملك يؤدى جميع فروض الصلاة بانتظام ، فهل تعتقد أن صاحب الجلالة ذو سليقة دينية ؟

فقال الباشا : « أعتقد ذلك . وقد قال لى منذ أيام فجأة خلال الحديث : إنه يشعر براحة حقيقية فى الصلاة . وهذا شىء جدير بالتنويه والملاحظة من شاب يقوم بأعباء الملك فى سن الفتوة ، ولا سيما وصاحب الجلالة غير مطبوع على الانزواء أو الخيالات العاطفية ، ولـكنه نشيط إلى الرياضة لا يميل إلى النزعات الخفية الغامضة ، وهو يحمل مصحفاً صغيراً لا يفارقه ؛ وأعلم أنه شديد الحب له والإيمان به »

* * *

وسنعود فى المقال التالى إلى التعقيب على أمثال هذه المباحث التى يتصدى لها بعض السائحين ، وإلى بيان الحقيقة فيما يلمحونه أو يخيل إليهم أنهم يلمحونه من دلائل الحياة الروحية وبواعث التغيير والتجديد فيها .

عباس محمود العقاد

من رسائلهم

لبعض القراء ملاحظات تدل أحياناً على جهل مشوع بطبيعة الأدب . من ذلك أنهم يعيبون على الأديب تحدثه عن نفسه . أمثال هؤلاء القراء لا بد أن يكونوا من تلاميذ المدارس أو المتخرجين فيها حديثاً . فهم يخلطون بين « معلم المدرسة » وبين « الأديب الفنان » . فمهمة « المعلم » الأولية أن يلقن أصول المعارف وأن يفرغ فى أذهان النشء مادة بعينها بغير أن يكون لشخصه دخل فى الأمر . أما « الأديب أو الفنان » فلا يلقن شيئاً ولا ينبغى له . لأنه يخاطب قوماً مفروضاً فيهم أنهم قد جاوزوا مراحل الدرس ؛ فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف والتجارب مقطرة من خلال « نفسه » . إن كل ما نطلبه ونرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم ، وكل دقيقة من دقائق حياتهم ، وكل لمحة من لمحات أبصارهم ، وكل ناحية من نواحى إحساسهم . إن « نفس » الأديب العارية هى كل ما ينبغى له أن يضعه تحت أنظارنا . ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقاً بأديب . فالأديب هو الآدمى الوحيد الذى خلق لكى يفتح لنا نفسه لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة . ويتحدث لنا عن نفسه فنرى من خلال حديثه كل تجاريب الإنسانية الشاعرة . وإن كل رجال الأدب العظام ليسوا إلا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم ، بوسائل شتى . وأما كقارىء لا يروقنى شىء مثل قراءة المذكرات التى يكتبها الأدباء والعظماء عن حياتهم الخاصة . والاعترافات والرسائل التى تتناول مسائل تمس أشخاصهم . فنحن فى تلك الكتابات المجردة عن أثواب التكلف والصناعة نستطيع أن نهبط إلى أغوار تلك النفوس الرحبة الغنية ، كما يهبط الغواص فجأة إلى أعماق البحار ، فيفاجىء اللآلىء فى أصدافها لم تمسها بعدُ يد غريبة ، تنتزعها لتدخل عليها بهرج الصاغة . إن الفنان إذ يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته الخاصة إنما يقدم لنا مادة فنية غير مصنوعة . إنه يترك رداءه الرسمى ليخرج إلينا بثياب البيت فى غير كلفة كأنه صديق ، وهذا منتهى الاخلاص منه ومنتهى التكريم لنا ؟

توفيق الحكيم